ازدواجية النضال والانتماء الفلسطيني

تميزت المشكلة الفلسطينية بالازدواجية منذ بروزها كقضية سياسية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ففي الوقت الذي كانت فيه ولايات المشرق العربي، بما فيها ولايتا عكا والقدس الشريف، تواجه مشكلة «التتريك» والهيمنة العثمانية، كانت المناطق الفلسطينية تواجه ايضا مسألة الاستيطان الصهيوني على الاراضي الفلسطينية التي بدأت مع اقامة اول مستعمرة صهيونية (ريشون لتسيون) في عام ١٨٨٢، وبدأ ذلك الاستيطان يستثير ريبة العرب الفلسطينيين، فكان اول احتجاج سياسي لهم في عام ١٨٩١. حيث «ابرق زعماء المسلمين في القدس الى الصدر الاعظم يعربون عن تخوفهم من وصول اعداد كبيرة من المهاجرين اليهود الى فلسطين»[١].

وقد اثار اهتمام الفلسطينيين بقضيتهم المباشرة (مواجهة الاستيطان اليهودي) ريبة اشقائهم العرب، الذين اتهموهم بالتقاعس عن النضال المشترك ضد الهيمنة العثمانية على الولايات العربية. ويشير الى هذه الحالة ما ردّ به صاحب جريدة «الكرمل» نجيب نصار على اولئك العرب في افتتاحية جريدته بالقول: «نحن الفلسطينيين على شفا جرف، فالخطر السياسي والاجتماعي والاقتصادي يهددنا من كل صوب، والامة التي تنازعنا البقاء في وطننا برهنت على كونها امة حيّة... فلماذا لا يقوم ابناء الامراء والشرفاء والكبراء والمتعلمون والغيورون في فلسطين لعقد مؤتمر يفكر بتنظيم جامعة عربية فلسطينية» [٢].

ولم تمنع هذه الخصوصية عرب فلسطين من الاستمرار الى جانب اشقائهم العرب في نضالهم لاقامة حكومة عربية مستقلة، كانت بريطانيا قد وعدت بمثلها الشريف حسين، شريف مكة، اذا خاض الحرب الى جانبها ضد تركيا (مراسلات حسين ـ مكماهون) لكن كشف روسيا البلشفية للوثائق السرية عن المعاهدات بين دول المتروبول الاوروبية (معاهدة سايكس ـ بيكو، ووعد بلفور باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين) دفع ابناء فلسطين الى الاهتمام اكثر بقضيتهم الخاصة، فانشأوا الجمعيات الاسلامية ـ المسيحية التي عقدت اول مؤتمر لها في القدس في كانون الثاني (يناير) ١٩١٩. مع ذلك توزع مندوبو المؤتمر على اتجاهين رئيسيين، احدهما نادى «بخصوصية» مشكلة ولايات سوريا الجنوبية (عكا، نابلس والقدس الشريف)، والاخر نادى بجعلها جزءا من «عمومية» المشكلة التي تواجهها سوريا ككل. وكانت الغلبة للتيار القومي، حيث ورد في المذكرة التي اقرها المؤتمر لرفعها الى مؤتمر السلم المعقود في باريس «ان تكون مقاطعتنا هذه، جنوب سوريا، اي فلسطين، غير منفصلة عن الحكومة السورية العربية المستقلة المرتبطة بالوحدة العربية خارجة عن كل نفوذ او حماية اجنبية»[٣]. وعلى هذا الاساس، ساهم ممثلو فلسطين في المؤتمر السوري العام، الذي عقد في دمشق في حزيران (يونيو) ١٩١٩، وتقرر فيه التأكيد على «الاعتراف باستقلال سوريا، ومن ضمنها فلسطين، دون حماية او وصاية»[٤]. واعتبر الفلسطينيون انفسهم من رعايا حكومة دمشق، التي وقف على رأسها الملك فيصل ابن الشريف حسين.

في ١٩٢٠، احتلت فرنسا جزءا من سوريا (الجزء المخصص لها حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو)، وانهت بذلك سلطة الملك فيصل على سوريا، حيث انتقل الى العراق وصار ملكا عليه. وشكل سقوط حكومة سوريا العربية، خيبة امل للفلسطينيين؛ «فكان حدثا مربكا ومذهلا لعرب فلسطين عامة، والعناصر النشيطة في قياداتهم التي شاركت في بناء هذا الحكم والدفاع عنه خاصة»[٥]؛ فعقدوا مؤتمرا خاصا بهم في حيفا في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠، وطرحوا فيه مطلب اقامة